

تاريخ النشر: 2025/06/01

تاريخ القبول: 2025/05/30

تاریخ الاستلام: 2025/03/03



تأثير الاستشراق في قراءة الأدب العربي القديم

✍ مراد ليتيمي
m.litimi@univ-dbk.m.dz
جامعة خميس مليانة / الجزائر

The influence of orientalism on the Reading of Ancient Arabic Literature

 **LITIMI Mourad**
m.litimi@univ-dbk.m.dz
University of Khemis Miliana - Algeria

ملخص البحث

انكب المستشرقون على التراث العربي الإسلامي بالتحقيق والدراسة لعقود من الزمن كان العرب خلالها منشغلين عنه وزاهدين فيه، ومنه حاز المستشرقون فضل السبق في إحياء التراث العربي ونقله إلى العالم وجعله متاحاً للبشرية، وكانت للمستشرقين مآرب مختلفة في التراث العربي، تختلف باختلاف منطلقاتهم الفكرية وانتماءاتهم.

تمكن الاستشراق من فرض الصورة التي رسمها للتراث العربي من خلال الأعمال التي قدمها، وهي أعمال تتسم بالغزارة والجودة، حتى غدا العرب أنفسهم ينظرون إلى التراث العربي من خلال ما قدمه المستشرقون عنه، من هذا المنطلق ستحاول هذه الورقة البحثية طرح عدد من الأسئلة منها:

- ما المقصود بالاستشراق؟
 - من هي الفئات التي مارسته؟
 - ما هو أثر الاستشراق على الحضارة العربية والأدب العربي بصفة خاصة؟
 - كيف أثر الاستشراق على رؤية العرب لأدبهم؟
- الكلمات المفتاحية: استشراق، تأثير، تراث، أدب، عربي.

ABSTRACT:

For decades, Orientalists dedicated themselves to studying and investigating Arab-Islamic heritage, while Arabs largely remained disengaged and indifferent. Consequently, Orientalists took the lead in reviving Arabic heritage, transmitting it to the world, and making it accessible to humanity. However, their engagement with Arabic heritage was driven by diverse motives, varying according to their intellectual backgrounds and affiliations.

Orientalism successfully shaped the perception of Arabic heritage through extensive, high-quality scholarly contributions. As a result, even Arabs began viewing their own heritage through the lens of Orientalist interpretations. Based on this premise, this research paper explores several key questions, including:

- What is Orientalism?
- Who were the key groups involved in its practice?
- What impact has Orientalism had on Arab civilization, particularly on Arabic

literature?

- How has Orientalism shaped Arabs' perception of their own literature?

Keywords: Orientalism, Influence, Heritage, Literature, Arabic.

1. مقدّمة:

تبني الحضارات علومها ومعارفها بفعل التراكم، فهي تستفيد من الأمم التي سبقتها والتي تعاصرها وتأخذ منها ما تحتاجه وتطوّره، والحضارات الأكثر تطوّراً قامت على المعارف والخبرات التي خلّفتها سابقتها، وهو نوع من التأثير والتأثر الإيجابي، ويرى كلود ليفي ستراوس (Claude Lévi-Strauss) أنّ الثقافات التي حققت تقدماً في التاريخ لم تكن منطوية على نفسها بل تعاونت مع الثقافات الأخرى¹، من هذا المنطلق استفادت الحضارة العربيّة الإسلامية من المعارف اليونانية والفارسيّة واستفادت الحضارة الأوروبيّة من المعارف العربيّة الإسلاميّة.

2. مفهوم الاستشراق:

يُطلق مُصطلح الاستشراق على الأبحاث والدراسات التي قام بها الباحثون الغربيون على الأمم الشرقيّة وبخاصة العربيّة والإسلاميّة منها، بيد أن المصطلح توسع مع مرور الزمن حيث أصبحت عدد من الجامعات العالميّة من آسيا وأفريقيا تتجه نحو دراسة التراث العربي الإسلامي²، و"المستشرق كلّ من يعمل بالتدريس أو الكتابة أو إجراء البحوث في موضوعات خاصّة بالشرق"³، مهما كان مجال هذه الأعمال وطبيعتها.

يعتبر إدوارد سعيد أنّ الاستشراق يمثل صورة من صور استعمال القوّة الثقافيّة⁴، فالغرب الذي مارس أنماط القوّة المختلفة العسكريّة منها والسياسيّة والاجتماعيّة مارس كذلك القوّة الثقافيّة، فالغرب المتعالي يرى في نفسه النموذج الذي له الحق في تغيير كلّ ما ليس مثله، ويقوم بفرض نموذجه على غيره، ويُعطي لنفسه الحق في احتلال الدول بداعي نشر الحضارة والتبشير الديني بداعي نشر السلام وفرض ثقافته بداعي الحداثة.

يُمثل الاستشراق موضوعاً حساساً بالنسبة للباحثين العرب وفيه كثيراً من الريبة، منه كانت نظرتهم إليه محكومة بالذاتية في كثير من الأحيان⁵.

قدم المستشرقون كما هائلاً من الأبحاث في مئات المجالات المتخصصة في الاستشراق وكذا المجالات المختلطة، إلى جانب عقد المؤتمرات التي تبحث في مواضيع ترتبط بالتراث العربي الإسلامي، كما أسسوا أقساماً في الجامعات الغربيّة متخصصة في العربيّة وعلومها، وبعد فترة من الزمن انتقلوا إلى التدريس في الجامعات بالدول العربيّة؛ حيث تمكن المستشرقون من ولوج بعض الجامعات الرسميّة في الدول العربيّة مثل: مصر ودمشق وبغداد⁶.

يمكن تصنيف المستشرقين الغربيين -على العموم- إلى فئتين⁷:

الفئة الأولى: أقبلت على دراسة التراث العربي الإسلامي بدوافع معرفيّة، ورغبة في الاكتشاف ومعرفة ما عند الآخر من معارف وعلوم، وكانت على قدر كبير من الموضوعيّة وكان لها أثراً فاعلاً في

تحقيق أعمال أدبية عربية خالدة، مثل: مقدمة ابن خلدون وكتاب ألف ليلة وليلة؛ فكان لها دورا في إعادة بعث بعض الأعمال بعد أن كانت طيّ النسيان.

الفئة الثانية: أقبلت على التراث العربي بدوافع أيديولوجية استيطانية، أو تحكمها مآرب سياسية، فكانت تدرس التراث العربي قصد تشويهه، ونفي الأصالة عنه، وبث الشك والريبة في نفوس أصحابه، وكان لهذه الفئة دورا في تشويه التراث العربي والتقليل من قيمته في نفوس بعض القراء. ومثال ذلك حملة نابوليون العسكرية على المشرق والتي ترافقت بعددٍ من المبشرين والباحثين المستشرقين؛ كان هدفهم دراسة التراث العربي لتوطيد الاحتلال.

3. تأثير الاستشراق:

استطاع الاستشراق أن يلج الفكر العربي الإسلامي، من خلال النظريات والمناهج التي قدمها للعالم، وكانت الجامعات المنفذ الذي عبر من خلاله الفكر الاستشراقي إلى العالم العربي الإسلامي، وتغلغل في مختلف المناحي والمجالات، فظهرت فئة من العرب والمسلمين تتبنى الآراء والأفكار الاستشراقية، وتتشكل هذه الفئة بالأساس من التلاميذ الذين درسوا على أيدي المستشرقين⁸ أو الذين سافروا إلى أوروبا وانهمروا.

أدرك المستشرقون خطورة الأدب العربي بالنسبة للثقافة العربية والإسلامية؛ فالأدب العربي يُقدم صورة عن حياة العرب في مختلف العصور⁹، وينقل أفكارهم ونظرتهم للوجود وفلسفتهم في الحياة، وأكثر من ذلك ارتباطه بالدين الإسلامي وبنصوصه المختلفة خاصة القرآن الكريم والسنة النبوية، من هذا المنطلق انكبوا على دراسته ومحاولة تحليله لفهم العقلية العربية.

1.3. التأثير الإيجابي:

كان لفئة من المستشرقين المدفوعين بحب المعرفة والبحث الجاد دورا إيجابيا في تقديم التراث العربي وبعثه؛ حيث كان لهم الفضل في إعادة الاعتبار لعدد كبير من الأعمال الأدبية التراثية المغمورة، وتقديم دراسات سلطت الضوء على جوانب مُهملة من التراث الأدبي.

ساهم المستشرقون في حفظ نصيب من التراث العربي من الزوال بعد تحقيق عدد كبير من المخطوطات ونشرها على نطاق واسع، مثل: كتاب الوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق جمعية المستشرقين الألمانية؛ حيث أسهم في تحقيق هذا المؤلف مجموعة من الباحثين الغربيين والعرب، والميزة في هذا التحقيق أنه لا توجد نسخة واحدة كاملة في أنحاء العالم بل تفرقت أجزاءه في خزانات مختلفة في العالم¹⁰، فكان جهد هذه الجماعة قائما على جمع أجزاء المؤلف وتحقيقه ونشره وهو الجهد الذي حافظ على المؤلف، وكتاب المفضليات لأبي عبيدة الذي حققه تشارلز

لايل (Charles Lyell)، وكتاب الفهرست لابن النديم الذي حققه غوستاف فليغل (Gustav Leberecht Flugel).

كما ساهم المستشرقون في نسبة الكتب التراثية إلى أصحابها الفعليين، كما فعل المستشرق كلمان هوار (Clément Huart)، الذي نسب كتاب (البدء والتاريخ) إلى صاحبه الفعلي وهو مُطهر بن طاهر المقدسي، بعد أن كان يُنسب إلى أبي زيد أحمد بن سهل البلخي، فهذا الأخير توفي سنة 322 هـ، والكتاب صُنف سنة 355 هـ.

قدم بعض المستشرقين كتباً قيّمة في خدمة الشرق، مثل: الباحثة تساريس وادي (T Waddy) التي قدمت كتاباً بعنوان: العقل المسلم، وهو كتاب عرض للحضارة الإسلامية بإنصاف، والباحث الألماني يوهان رايسكه (Jhann Jakob Reiske) الذي أتقن فنون العربية ووهب نفسه لخدمتها في وطنه الأم ألمانيا، وخاض حروباً طويلة مع أعداء العربيّة.

كانت كثير من قراءات المستشرقين للنصوص الأدبية ومقارباتهم لها على قدر عال من الجودة والدقة، كما أنّهم قدموا قراءات مختلفة تتسم بالجدة والطرافة فتحت آفاقاً جديدة لفهم النصوص الأدبيّة العربيّة¹¹، وسلكت سبلاً غير معهودة في تحليل النصوص الأدبية، ما جعل النصوص الأدبية العربية تنفتح على دلالات جديدة ونتائج مختلفة، كما فعل المستشرق الألماني زيدن شيتكر الذي درس عدداً من قصائد الشعر القديم اعتماداً على المنهج الأسلوبى، وحلّل الصور الشعرية التراثية مستعيناً بالبلاغة العربية والغربيّة على حد سواء، ومن الدراسات الشيّقة ما قام به يوهان غوته (Johann Goethe) الذي كتب عن الجانب الإنساني من شخصيّة الشاعر الجاهلي تأبط شراً¹²، وهي دراسة فريدة لم يسبقه إليه أحد من النقاد العرب أو الغربيين.

جعل بعض الأعمال الأدبية التراثية متاحة للقارئ في هيئة مقبولة وسهلة المنال، فقد "نشر المستشرقون مئات من كتبنا القديمة، ووضعوا مئات من الدراسات عن تاريخ الحضارة العربيّة والإسلامية"¹³، كان أشهرها كتاب تاريخ الأدب العربي الذي ألفه المستشرق الألماني كارل بروكلمان (Carl Brockelmann)، وقد غدا هذا الكتاب مصدراً للباحثين في تاريخ الأدب العربي، ينهل منه الباحثون العرب وغيرهم.

أسهم المستشرقون في نقل العربية وعلومها إلى العالمية¹⁴؛ حيث أصبحت كبرى الجامعات العالمية تضم أقساماً لتدريس اللغة العربية وآدابها، كما أصبحت المعارف العربية متداولة بين هذه الأمم، فغدت المعارف العربية تتسم بطابع إنساني عالمي.

شكلت أعمال المستشرقين قاعدة للأدباء والنقاد العرب في بعث الأدب العربي، ودفع حركة النهضة الأدبية والنقدية التي انطلقت من مصر لتنتشر في أقطار الوطن العربي، كما أنّ الأبحاث المرتبطة بتاريخ الأدب العربي تعود في كثير من أصولها إلى منجزات المستشرقين في المجال¹⁵.

جعل الاستشراق العرب ينفثون على الحضارة الغربية ويستفيدون من أدوات النهضة فيها؛ فانتشرت المطابع والصحف والمجلات، وأكثر من ذلك جعل الاستشراق العرب يكتشفون حجم وقيمة التراث العربي عموماً والتراث الأدبي العربي بصفة خاصة، وهو في حقيقة الأمر تراث ضخم جداً ومتنوع وثري يستحق أن يكون في الواجهة وليس في رفوف الخزائن القديمة يعلوه الغبار، فمن خلال المستشرقين اكتشف العرب وسائل إحياء التراث وبعثه.

2.3. التأثير السلبي:

قدم بعض المستشرقين التراث العربي بطريقة سلبية تقوم على التشكيك في صحته وفي صحة مصادره؛ حيث شككوا في صحة نسبته كما فعلوا مع الشعر الجاهلي، وشككوا في قدرة اللغة العربية على مسايرة العصر وهي اللغة الأكثر مرونة وقدرة على الاشتقاق وأكثرها امتلاكاً للمفردات، واعتبروها لغة بدوية وعقيمة وميتة وأنها هي سبب تخلف المجتمعات العربية، وفي المقابل مدحوا اللهجات العربية الدارجة ووصفوها بالمرونة والقدرة على مسايرة العصر¹⁶، كلّ ذلك حتى يجعلوا لكلّ قطر لغة محصورة في لهجته فتضيع اللغة العربية الجامعة.

تقديم أفكار وآراء مغلوطة عن التراث العربي بسبب الجهل بالنحو العربي والمداخل البلاغية، فأى دراسة لأيّ أدب يستلزم معرفةً بلغة ذلك الأدب وبمنظومته الفكرية، وغير ذلك يكون عبثاً.

كانت أولى بدايات الاستشراق مع الرهبان والمبشرين الذين كان لهم اهتمام خاص بالمشرق العربي؛ قصد نشر النصرانية¹⁷، فكانت دراساتهم للحضارة العربية الإسلامية تهدف إلى البحث في نقاط الضعف والعناصر الرخوة التي يمكن من خلالها الولوج لعملية التنصير، ومنهم: جربرت أورلياك (Gerbert Aurillac)، روبرت أوف تشستر (Robert of Chester)، رايوندو مارتيني (Raymundus Martini)، رايمون لول (Raymond Llull) ... وغيرهم كثير.

لحق اليهود بمسيرة الاستشراق وسعوا إلى التغلغل بين غيرهم من المستشرقين¹⁸ فلم يكن اليهودي يعرف عن نفسه بل كان ينسب نفسه إلى البلد الذي يسكنه أو الجامعة التي ينتهي إليها، بيد أنّهم كانوا يسعون إلى تحقيق هدف مشترك وهو النيل من الإسلام ومن العربية.

من المستشرقين من كان جاهلاً باللغة العربية وبمداخلها فكان فهمهم للنصوص سقيماً وبعيداً عن مقاصد النص العربي، وقد وقع بعضهم في عدد من الأخطاء¹⁹ منها:

■ الجهل باللغة العربية وبمداخلها اللغوية والبلاغية.

- الجهل بالمعتقدات والعادات العربية.
- الجهل بالنفسية والشخصية العربية.

فكانوا يسقطون بعض الممارسات العربية على مجتمعاتهم وأفكارهم وهي عملية خاطئة؛ فلكل مجتمع خصوصيته ومعايره.

كان من المستشرقين المنتمين إلى المجمع الرسمية في البلدان العربية من يكن عداوة للإسلام وللعربية فكان له أثرا سلبيا على العربية، ومن هؤلاء نذكر: دافيد مرغليوث (David Samuel Marrgoliouth)، رينولد نيكلسون (Reynold Alleyne Nicholson)، لويس ماسنيون (Louis Massignon)، أرنست فينسينك (Arent Jan Wensinck)²⁰.

تقوم كثير من البحوث الاستشراقية على التعميم المطلق؛ حيث يأخذ البحث عينة غير شائعة ويحكم من خلالها حكما مطلقا، كما فعل المستشرق هارولد و. غليدن الذي نشر مقالا بعنوان: (العالم العربي) في المجلة الأمريكية للطب النفسي، حاول من خلاله إثبات أن الحياة العربية تقوم على النزاع المستمر والقتل والثأر، ومن جملة ما قاله: (إنّ العرب يعيشون في كنف ثقافة العار أو الخزي)، (الموضوعية ليست من الفضائل في نسق القيم العربية)، (الحرب لا السلم هي ما يمثل الوضع الطبيعي في المجتمع القبلي العربي)²¹، يمثل المقال الذي قدمه غليدن تحاملا بالغا على الثقافة العربية محكوما بنظرته الاستعلائية القائمة على التعميم المفرط من خلال عرض عينات قليلة في المجتمع العربي وجعلها قاعدة عامة.

كما تقوم بعض الأحكام التي يخلص إليها المستشرقون على آراء شاذة من التراث العربي، فالآراء الشاذة مبسوطة في ثنايا التراث في مختلف المجالات والتخصصات وهي معروفة عند علماء التراث العربي ويشيرون لها، لكنهم لا يؤسسون عليها أحكامهم، أمّا بعض المستشرقين فيجعلون منها قاعدة لبناء أحكام عامة ومطلقة.

شكك عدد من المستشرقين في أصالة النحو العربي، مدعين أنّ أصوله تعود إلى اليونانية أو السريالية أو الهندية أو اللاتينية، فحاولوا ربطه بأي أصل كان، لنفي الأصالة عنه، ومن المستشرقين الذين نفوا أصالة النحو العربي نذكر: إرنست رينان (Ernest Renan)، غ. هوفمان (Hofmann)، أ. ميركس، نودلك...، وقامت فكرة هؤلاء على فرضية تأثر النحاة العرب بغيرهم من النحاة من الحضارات الأخرى²²، متناسين أنّ النحو العربي لم يضعه النحاة إنّما قعدوا لما تكلمت به العرب الفصحاء بالسليقة، فالنحو مارسه العرب بالسليقة وجاء النحاة ليوثقوا ما هو موجود.

تجاهل كثير من المستشرقين -عن قصد وغير قصد- لخصوصية المجتمع العربي وثقافته أدى إلى تقديم أحكام غير واقعية وبعيدة عن حقيقة التراث العربي²³، فالمجتمعات تتميز باختلاف ثقافتها وتنوع

إرثها، وهي السمة التي يُغفلها كثير من المستشرقين تحت تأثير عقدة التفوق معتبرين كل ما هو مُخالف لثقافتهم تخلف وجعل، مع أنهم يحملون شعار التنوع والحق في الاختلاف.

رسم الاستشراق صورة نمطية عن الثقافة العربية بصفتها جزءاً من الثقافة الشرقية، هذه الثقافة التي غدت نظاماً من الصور التي صاغها المستشرقون²⁴، بعد أن تحولت إلى مادة للبحث والدراسة عند الغرب، أمّا في مجال الأدب والفنون فقد رُسمت للعربي صورة فيها كثير من الازدراء؛ حيث كان الرجل العربي يمتطي الجمال ويتسم بالجبن وتقوده الشهوات والغرائز، وجسمه يعلوه الغبار وأنفه معقوف وملابسه بالية²⁵، كلّها أوصاف أوغل بعض المستشرقين في رسمها للعربي.

4. مظاهر الفكر الاستشراقي في الفكر العربي:

كان للاستشراق دوراً في توجيه نظرتنا نحو التراث العربي، فالبحوث التي قدمها المستشرقون على طول عقود أثّرت في رؤية الباحثين العرب للتراث، ففي كثير من الأحيان غدا الباحث العربي ينظر إلى تراثه بعيون استشراقية، وأراؤه صدى للأطروحات التي قدمها المستشرقون، يقول إدوارد سعيد في هذا السياق: "لا يزال حياً في الحياة الأكاديمية من خلال ما أرساه من مذاهب وقضايا فكرية بشأن الشرق والشرقي"²⁶، وقد تمكن الغرب من بناء نماذج تُشكل القدوة والمعيّار الذي يجب أن يُحتذى²⁷، ونادراً ما نجد باحثاً أو مفكراً مستقل بفكره ويؤسس لبحوث تخرج عن نطاق العقلية والنماذج الأوروبية.

اختلف الباحثون العرب في تأثيرهم بالأفكار الاستشراقية، فمنهم من استلهم من البحوث الاستشراقية ونهل من معارفها لجعلها قاعدة متينة لمواصلة البحث، وفي المقابل تأثر بعض الباحثين العرب بالأفكار السلبية للمستشرقين الحاقدين وكرروا طروحاتهم دون تدقيق أو تمحيص.

■ عزّ الدين إسماعيل: تأثر عدد من النقاد العرب بالأراء النقدية الاستشراقية، كما هو الحال مع الناقد عزّ الدين إسماعيل الذي تأثر بأفكار والتر براون (Walter Browne) ومنها أنّ النسيب يمثل تعبيراً يُجسم ارتداد الشاعر إلى نفسه وخلوه إليها وهو الجزء الذاتي من القصيدة الذي يُعبر من خلاله عن الكون والحياة²⁸.

ظهر في دراسة عزّ الدين إسماعيل (النسيب في مقدمة القصيدة الجاهلية في ضوء التفسير النفسي) تأثره ببحث قدمه براون بعنوان: (الوجودية في الجاهلية)²⁹؛ حيث ربط براون المقدمة الطللية وما يرتبط بها من موضوعات بقضايا وجودية يعيشها الإنسان الجاهلي، وانحسار هذه المقدمة بظهور الإسلام يؤكد ذلك فالإسلام عالج كثيراً من بالقضايا الوجودية التي كانت تؤرق الجاهلي، ورغم نقد عدد من النقاد العرب للنتائج التي وصل إليها عزّ الدين إسماعيل ومن قبله براون، تبقى محاولة كلّ منهما تستحق التقدير.

■ عبد الفتاح كيليطو: يُمثل هذا الناقد ظاهرة في قراءته للتراث العربي والأدبي منه بصفة خاصة؛ فهو يقدم قراءات مقتضبة لنصوص أدبية بطرائق مبتكرة، فكُتبه مثل: الأدب والغرابية، من شرفة ابن رشد، الغائب، حصان نيتشه، الأدب والارتياح...، عبارة عن دراسات لنصوص من الأدب العربي تقوم على التركيز والاختصار لكنها تقدم نتائج كبيرة وأفكار جديدة، ويُعزى ذلك -في نظرنا- إلى تأثير كيليطو بأبحاث المستشرقين التي استثمرها في أعماله، إلى جانب اطلاعه الواسع على المناهج الغربية الحديثة التي وظفها بطريقة مرنة.

ظهر في البلدان العربية فريق يُمجد كل ما هو غربي ويبخس كل ما هو عربي؛ وهو الفريق الذي يحتقر العلوم العربية ويزدري ما أنتج أجداده³⁰، فيجد حرجا في العودة إلى الأعمال التراثية العربية لكنه يشعر بالفخر عند العودة إلى الأعمال التراثية الغربية، فيستشهد بأفلاطون وأرسطو معتبرا نفسه حديثا لكنه يرفض الاستشهاد بالجرجاني والجاحظ فذلك يعد رجعية.

■ طه حسين: ظهرت فئة تشكك بصحة الأدب العربي، أو صحة انتمائه، كما فعل طه حسين الذي شكك في صحة الشعر الجاهلي وفي حقيقة وجود بعض الشعراء مثل: امرؤ القيس؛ حيث يرى طه حسين أنه شخصية خيالية والشعر الذي يُنسب إليه منحول، كما شكك بعضهم في صحة المعلقات، من المستشرقين الذين تأثر بهم طه حسين نذكر: مرغليوث الذي نفى أن تُنسب القصائد الجاهلية المعروفة إلى الجاهليين في مقال بعنوان: أصول الشعر الجاهلي، دوركايم، هاملتون غب (Hamilton Gibb)، وجميعهم من المستشرقين المتحاملين على العربية وعلومها، ومن المستشرقين الذين درس طه حسين على أيديهم نذكر: غوستاف غلوتز، لويس ماسينيون، شارل سينوبوس (Charles Seignobos).

والتشكيك في صحة الأدب العربي والشعر الجاهلي بصفة خاصة سبقه إليه عدد من المستشرقين منهم المستشرق تيودور نولدك (Theodor Noldeke)، ريجي بلاشير (Régis Blachère)، الذي أثرت أطروحته بشكل بارز في آراء طه حسين، أما أكثر الآراء تطرفا في نفي صحة نسبة الشعر الجاهلي فقد أخذها عن مرغليوث الذي نشر مقالا بعنوان: (أصول الشعر العربي)، مدعيا أن الشعر الذي ننسبه للجاهليين نُظم في العصور الإسلامية، وقدم في ذلك عددا من الحجج التي سعى من خلالها التأكيد على أطروحته، وهي الحجج نفسها التي كررها طه حسين، وقدمها بأسلوبه الفني الراقى، ومن الحجج التي قدّمها مرغليوث لإثبات إدعائه وكان لها تأثير بالغ في طه حسين نذكر³¹:

➤ «بعد المسافة بين فترة نظم الشعري الجاهلي وفترة تدوينه؛ حيث يعتبر أن الشعر الجاهلي في معظمه يعود إلى فترة بعيدة قبل الإسلام وقد دُوّن بعد فترة طويلة من نظمه، على البعد بين النظم والتدوين يجعل من المستحيل أن يحافظ الشعر على بقائه كما نظمه صاحبه.

➤ شكك في قدرة الرواة على الحفاظ على الشعر؛ فمن غير المنطقي -حسبه- أن يوجد شخص وظيفته حفظ شعر غيره وروايته.

➤ ذكر القرآن للشعراء في غير موضع بطريقة سلبية، ما يعني أنّ المسلمين سينفرون من شعرهم.

➤ تُخلد القصائد الجاهلية الحروب التي دارت بين القبائل ويذكر النعرات التي كانت بينها، والإسلام يدعوا إلى نسيانها، فتتعارض مضامين الشعر الجاهلي والعقيدة الإسلامية.

➤ تتشابه لغة وأسلوب الشعر الجاهلي مع لغة وأسلوب القرآن مما يؤكد أنّه نُظم في فترة تالية للقرآن.

➤ التشكيك في نزاهة عدد من الرواة أمثال: خلف الأحمر وحماد الرواية، واعتبارهم من الأشخاص الذين لا يمكن الوثوق بهم في نقل الشعر وروايته.

➤ عبّر الشعر الجاهلي عن معانٍ لا تنتهي إلى الجاهلية مثل: التوحيد والأنبياء ويوم الحساب وهي كلّها معاني ذات طابع إسلامي.

➤ رغم اختلاف لهجات القبائل العربيّة إلّا أنّ الشعر الجاهلي جاء بلغة واحدة وهي لغة القرآن.

قدم الباحث ناصر الدين الأسد نقداً دقيقاً ومُفصلاً لأطروحة مرغليوث وفند حُججه، وأظهر للقراء جهل مرغليوث بعدد من العناصر التي ترتبط بتداول الشعر وحفظه عند العرب³²، كما فنّد عدد من المستشرقين أطروحته وبالأدلة الدامغة.

■ علي عبد الرزاق: كان شيخاً أزهرياً عادياً لا يكاد يسمع به أحد، إلى أن دعاه بعض المستشرقين للمشاركة في بعض الملتقيات الاستشراقية بلندن، فتأثر بالفكر الاستشراقي وانهر بما وصل إليه الغرب، فغير عمامته وجلابيته بالزي الأوروبي وألف كتاب (الإسلام وأصول الحكم)، الذي اعتبر فيه الشريعة الإسلامية تقوم على أسس روحية صرفة ولا يمكن أن تؤسس للسياسية والحكم³³، محاولاً من خلال ذلك تحقيق فكرة فصل الدين عن الدولة التي زرعها فيه الغرب.

■ محمد أركون: تشبع أركون بالفكر الاستشراقي والثقافة الغربية معاً، فمنذ طفولته تتلمذ بالمدرسة المسيحية بوهران، ودرس بجامعة الجزائر على يد الفرنسيين وواصل تعليمه بجامعة السوربون الفرنسية، فكان غربي الثقافة والتعليم، كما أنّه تأثر بعدد من المستشرقين منهم: هوبر غريم، تيودور نولدك، فريدريك شوالي (Friedrich Chwally)... ويظهر هذا التأثير في تشكيكه في صحّة القرآن؛ حيث يعتبر أنّ القرآن ليس رسالة إلهية بل هو من وضع النبي محمد ﷺ، وأقام أطروحته هذه على مجموعة من المسلمات كالآتي:

➤ تاريخية النص القرآني.

➤ اعتبار القرآن أسطورة وهو الحال نفسه بالنسبة للتوراة والإنجيل.

➤ نفي المصدر التشريعي للقرآن معتبراً إياه مجرد خطاب مجازي مفعم بالتأمل.

➤ التشكيك في القصص القرآني، معتبرا إياها مجرد أساطير نُقلت عن التوراة والإنجيل³⁴، وهي الفكرة التي أخذها عن المستشرق إغناطس غولدتسمير (Ignàc Goldzher)، الذي قام محاولة كبيرة جدا للتشكيك في صحة القرآن الكريم والحديث النبوي، من خلال حشد المغالطات والآراء الشاذة. ➤ التدليل على التناقض في القرآن من خلال اختلاف القراءات فيه.

أكثر المستشرقين الذين أخذ عنهم فكرة نفي المصدر الإلهي عن القرآن ريجي بلاشير، فهو يزعم أنّ القرآن بعد نزوله لم يُدون مباشرة وبقي مدة عشرون سنة محفوظا في صدور المسلمين وهي الفترة التي طرأت عليه تغييرات كثيرة وإضافات ليست منه، ويُطلق بلاشير مُسمى التنقيح على عملية جمع القرآن³⁵، وهو مدرك جيدا لما تعنيه هذه الكلمة.

تقوم تأويلات أركون للآيات القرآنية والأحاديث النبوية في أغلب الأحيان على آراء وأطروحات استشراقية؛ فهو يتصدى لدراسة الخطاب الديني اعتمادا على الإرث الذي خلفه³⁶ المستشرقون سواء من جهة المناهج التي اعتمدها أو الآراء التي قدموها.

شكك المستشرق جيرونيياوم بدوره في صحة القرآن واعتبر أنّ فيه أخطاء كثيرة ترتبط بالجمع والترتيب³⁷، والكتاب الذي بين أيدي المسلمين ليس هو ما نزل على محمد ﷺ.

■ نصر حامد أبو زيد: أعاد هذا الباحث عددا من الأفكار الاستشراقية، ومنها قوله بأنّ القرآن الكريم من إنتاج النبي محمد ﷺ، حجّته في ذلك أنّ القرآن نزل منجّما تماشيا مع الأحداث التي تواجه النبي الكريم، فكلّما طرأ حدث أنتج آيات تتماشى مع الحدث، ولو كان مصدره إلهيا لنزل نصا واحد غير متفرق³⁸، وهي مقوله سبقه إليها عدد من المستشرقين، وكررها عدد غير قليل من الباحثين العرب الرافعين لدعوى الحداثة والتجديد.

5. خاتمة:

أثر الاستشراق في التراث العربي والأدب بصفة خاصة؛ نتيجة الجهود الضخمة التي بذلها المستشرقون في قراءته ودراسته في مقابل ضعف الجهود العربية للاعتناء به، فكانت النتيجة أن قُدم التراث والأدب العربيين إلى العالم من غرباء عنهما وبالصورة التي أرادوها لهما.

وغدا العالم ينظر إلى الأدب العربي من منظور المستشرقين لا من منظور أصحابه، وبلغ الأمر أن غدا حتى الباحثون العرب متأثرون برؤية المستشرقين، ويحكمون على الأدب العربي من خلال ما قدمه المستشرقون.

يلاحظ المتتبع لكتابات بعض الذين يُسمون أنفسهم حداثيين ووهبوا أنفسهم لمحاربة الإسلام واللغة العربية وآدابها، أنّهم لم يُقدموا آراء من عندهم بل جلّ كلامهم تكرر لأفكار وأطروحات استشراقية قاموا بصياغتها بطريقة مختلفة، وفي بعض الأحيان يُكررونها كما هي بطريقة فجّة.

يحتاج التراث العربي بصفة عامة والأدب القديم بصفة خاصة إلى جهود من لدن الباحثين العرب النزهاء والجادين للبحث في الأدب العربي القديم بطريقة منهجية دقيقة، تعيد له روحه وتبعث ما فيه من فوائد.

تبقى جهود المستشرقين ذات قيمة بالنسبة للأدب العربي القديم، تحتاج التثمين والاهتمام لكل باحث في التراث العربي، إذا محصها الباحث وغربل منها آراء وأفكار المستشرقين أصحاب التوجهات التنصيرية والاستعمارية المتعالية، وكذا بعض الأخطاء التي وقع فيها المستشرقون نتيجة جهلهم باللغة أو خصوصية الثقافة.

هوامش البحث:

- ¹. ينظر خيرى منصور، الاستشراق والوعي السالب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2001، ص 145.
- ². ينظر علي بن إبراهيم نملة، كنه الاستشراق (المفهوم، الأهداف، الارتباطات)، ط 02، دار بيسان، بيروت، 2011، ص 27.
- ³. إدوارد سعيد، الاستشراق (المفاهيم الغربية للشرق)، تر: محمد عناني، ط 01، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006، ص 44.
- ⁴. ينظر المرجع نفسه، ص 97.
- ⁵. ينظر علي بن إبراهيم نملة، كنه الاستشراق (المفهوم، الأهداف، الارتباطات)، ص 20.
- ⁶. ينظر إسماعيل علي محمد، الاستشراق بين الحقيقة والتضليل (مدخل علمي لدراسة الاستشراق)، ط 06، دار الكلمة، القاهرة، 2014، ص 112.
- ⁷. ينظر علي بن إبراهيم نملة، كنه الاستشراق (المفهوم، الأهداف، الارتباطات)، ص 30.
- ⁸. ينظر محمد خليفة حسن، آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، ط 01، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1997، ص 88.
- ⁹. ينظر لامية طالة، ظاهرة الاستشراق: قراءة في تجلياتها في الأدب العربي وتمظهراتها في الثقافة الإسلامية، مجلة العلوم الإنسانية والحضارة، المجلد 05، العدد 01، ص 70.
- ¹⁰. محمد عوني عبد الرؤوف، جهود المستشرقين في التراث العربي (بين التحقيق والترجمة)، ط 01، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2004، ص 92.
- ¹¹. ينظر حسن يوسف، الخطاب النقدي الاستشراقي والشعر العربي (الاستشراق الألماني)، ص 99.
- ¹². ينظر المرجع نفسه، ص 2005.
- ¹³. محمد عوني عبد الرؤوف، جهود المستشرقين في التراث العربي (بين التحقيق والترجمة)، ص 12.
- ¹⁴. ينظر عباس صالح طاشكندى، الاستشرق ودوره في توثيق وتحقيق التراث، مجلة عالم الكتب، مج: 05، ع: 01، ص 06.
- ¹⁵. ينظر فتيحة سريدي، مجلة التواصل الأدبي، العدد الأول، جامعة عنابة، جوان 2007، ص 242.
- ¹⁶. ينظر محمد خليفة حسن، آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، ص 120.

- ¹⁷. ينظر إسماعيل علي محمد، الاستشراق بين الحقيقة والتضليل (مدخل علمي لدراسة الاستشراق)، ص 18.
- ¹⁸. ينظر المرجع نفسه، ص 23.
- ¹⁹. ينظر المرجع نفسه، ص 44.
- ²⁰. ينظر المرجع نفسه، ص 113.
- ²¹. ينظر إدوارد سعيد، الاستشراق (المفاهيم الغربية للشرق)، ص 109.
- ²². ينظر محمد خليفة حسن، آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، ص 114.
- ²³. ينظر إدوارد سعيد، الاستشراق (المفاهيم الغربية للشرق)، ص 192.
- ²⁴. ينظر المرجع نفسه، ص 319.
- ²⁵. ينظر المرجع نفسه، ص 437.
- ²⁶. المرجع نفسه، ص 45.
- ²⁷. ينظر محمد حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ط 01، مطابع الدوحة الحديثة، قطر، 1983، ص 09.
- ²⁸. ينظر حسن يوسف، الخطاب النقدي الاستشراقي والشعر العربي (الاستشراق الألماني)، ط 01، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2015، ص 196.
- ²⁹. ينظر ر عمر زرقاوي، قراءة مقدمة النسيب في النقد العربي الحديث (إكراهات الإسقاط وأعطاب التأويل)، مجلة أوليوس، المجلد 06، العدد 01، جامعة سوق أهراس، جانفي 2019، ص 42.
- ³⁰. ينظر إسماعيل علي محمد، الاستشراق بين الحقيقة والتضليل (مدخل علمي لدراسة الاستشراق)، ص 121.
- ³¹. ينظر ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ط 05، دار المعارف، القاهرة، 1978، ص 367/352.
- ³². ينظر المرجع نفسه، ص 353.
- ³³. ينظر إسماعيل علي محمد، الاستشراق بين الحقيقة والتضليل (مدخل علمي لدراسة الاستشراق)، ص 125/122.
- ³⁴. ينظر محمد أركون، الفكر الإسلامي (قراءة علمية)، تر: هاشم صالح، ط 02، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1996، ص 203/202.
- ³⁵. محمد بن سعيد السرحاني، الأثر الاستشراقي في موقف محمد أركون من القرآن، مجمع الملك فهد، السعودية، 2006، ص 33.
- ³⁶. ينظر خولة مهدي الجرج، مناهج وآليات فهم النص القرآني عند محمد أركون وأثر الاستشراق فيها، مجلة مركز دراسات الكوفة، العدد 62، جامعة الكوفة، سبتمبر 2021، ص 250.
- ³⁷. ينظر محمد بن سعيد السرحاني، الأثر الاستشراقي في موقف محمد أركون من القرآن، ص 34.
- ³⁸. ينظر فريدة زمرد، أزمة النصّ في مفهوم النص عند نصر حامد أبو زيد، ط 01، مطبعة أنفو-برانت، فاس، 2005، ص 23.